

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٥﴾ فِيهَا فَتَنُكُمُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴿١﴾

﴿١﴾ هذه السورة الكريمة الجليلة افتتحتها باسمه الرحمن، الدال على سعة رحمته وعموم إحسانه وجزيل بره وواسع فضله، ثم ذكّر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية والأخروية، وبعد كل جنس ونوع من نعمه ينبه الثقلين لشكره ويقول: ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿٢﴾ فذكر أنه: ﴿علم القرآن﴾؛ أي: علّم عباده ألفاظه ومعانيه ويسرّها على عباده، وهذا أعظم منّة ورحمة رحم بها العباد، حيث أنزل عليهم قرآناً عربياً بأحسن الألفاظ وأوضح المعاني^(١)، مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر.

﴿٣ - ٤﴾ ﴿خلق الإنسان﴾: في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفى الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن الباري تعالى البديع خلقه أي إتقان، وميّزه على سائر الحيوانات بأن ﴿علّمه البيان﴾؛ أي: التبيين عمّا في ضميره. وهذا شامل للتعليم الثّقفي والتعليم الخطّي؛ فالبيان الذي ميّز الله به الآدمي على غيره من أجل نعمه وأكبرها عليه.

﴿٥﴾ ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾؛ أي: خلق الله الشمس والقمر وسخرهما يجريان بحساب مقنّن وتقدير مقدّر رحمة بالعباد وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرفوا عدد السنين والحساب.

﴿٦﴾ ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾؛ أي: نجوم السماء وأشجار الأرض تعرف

(١) في (ب): «وأحسن تفسير».

رَبِّهَا وَتَسْجُدُ لَهُ وَتَطِيعُ وَتَخْضَعُ^(١) وَتَتَقَادُ لِمَا سَخَّرَهَا لَهُ مِنْ مَصَالِحِ عِبَادِهِ وَمَنَافِعِهِمْ .
 ﴿٧ - ٨﴾ ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ : سَقْفًا لِلْمَخْلُوقَاتِ الْأَرْضِيَّةِ ، ﴿وَوَضَعَ﴾ [اللَّهُ] ﴿الْمِيزَانَ﴾ ؛ أَي : الْعَدْلَ بَيْنَ الْعِبَادِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الْمِيزَانُ الْمَعْرُوفُ وَحْدَهُ ، بَلْ هُوَ كَمَا ذَكَرْنَا ؛ يَدْخُلُ فِيهِ الْمِيزَانُ الْمَعْرُوفُ وَالْمِكْيَالُ الَّذِي تُكَالُ بِهِ الْأَشْيَاءُ وَالْمَقَادِيرُ وَالْمَسَاحَاتُ الَّتِي تُضَبَطُ بِهَا الْمَجْهُولَاتُ وَالْحَقَائِقُ الَّتِي يُفْضَلُ بِهَا بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَيُقَامُ بِهَا الْعَدْلُ بَيْنَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ؛ أَي : أَنْزَلَ اللَّهُ الْمِيزَانَ لئَلَّا تَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الْمِيزَانِ ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ لَوْ كَانَ يَرْجِعُ إِلَى عَقُولِكُمْ وَأَرَائِكُمْ ؛ لَحَصَلَ مِنَ الْخَلَلِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ ، وَلَفْسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ .

﴿٩﴾ ﴿وَأَقِيمُوا الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ ؛ أَي : اجْعَلُوهُ قَائِمًا بِالْعَدْلِ ، الَّذِي تَصِلُ إِلَيْهِ مَقْدَرَتِكُمْ وَإِمكَانِكُمْ ، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ؛ أَي : لَا تَنْقُصُوهُ وَتَعْمَلُوا بِضَدِّهِ ، وَهُوَ الْجَوْرُ وَالظُّلْمُ وَالطُّغْيَانُ .

﴿١٠﴾ ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ : اللَّهُ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْكِثَافَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَاخْتِلَافِ أَوْصَافِهَا وَأَحْوَالِهَا ﴿لِلْأَنَامِ﴾ ؛ أَي : لِلْخَلْقِ ؛ لِكَيْ يَسْتَقَرُّوا عَلَيْهَا ، وَتَكُونَ لَهُمْ مَهَادًا وَفِرَاشًا ، يَبْنُونَ بِهَا وَيَحْرَثُونَ وَيَغْرِسُونَ وَيَحْفَرُونَ ، وَيَسْلُكُونَ سُبُلَهَا فَجَاجِبًا ، وَيَتَتَفَعُونَ بِمَعَادِنِهَا ، وَجَمِيعَ مَا فِيهَا مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ حَاجَتُهُمْ بَلْ ضَرُورَتُهُمْ .

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية، فقال:

﴿١١﴾ ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ : وَهِيَ^(٢) جَمِيعُ الْأَشْجَارِ الَّتِي تَثْمُرُ الثَّمَرَاتِ الَّتِي يَتَفَكَّهُ بِهَا الْعِبَادُ مِنَ الْعَنْبِ وَالتَّيْنِ وَالرَّمَانِ وَالتُّفَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ ؛ أَي : ذَاتُ الْوَعَاءِ الَّذِي يَنْفَلِقُ عَنِ الْقِنْوَانِ الَّتِي تَخْرُجُ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى تَتَمَّ فَتَكُونُ قَوْتًا يَدْخُرُ وَيُؤْكَلُ^(٣) وَيَتَزَوَّدُ مِنْهُ الْمَقِيمُ وَالْمَسَافِرُ وَفَاكِهَةٌ لَذِيذَةٌ مِنْ أَحْسَنِ الْفَوَاكِهِ .

﴿١٢﴾ ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ ؛ أَي : ذُو السَّاقِ الَّذِي يُدَاسُ فَيَتَنَفَعُ بِتَبْنِهِ لِلْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ حَبُّ الْبُرِّ وَالشَّعِيرِ وَالدُّرَّةُ وَالْأَرْزُ وَالدَّخْنُ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ : يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ^(٤) جَمِيعَ الْأَرْزَاقِ الَّتِي يَأْكُلُهَا الْآدَمِيُّونَ ، فَيَكُونُ هَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ ، وَيَكُونُ اللَّهُ [تَعَالَى] قَدْ اِمْتَنَّ عَلَى عِبَادِهِ

(٢) فِي (ب) : «وَهُوَ» .

(٤) فِي (ب) : «بِذَلِكَ» .

(١) فِي (ب) : «وَتَخْضَعُ» .

(٣) فِي (ب) : «يُؤْكَلُ وَيُدْخَرُ» .

بالقوت والرزق عموماً وخصوصاً. ويُحتمل أن المراد بالريحان الريحان المعروف، وأن الله امتنَّ على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة والمشامِّ الفاخرة التي تسرُّ الأرواح وتشرح لها النفوس.

﴿١٣﴾ ولما ذَكَرَ جملةً كثيرةً من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطابُ للثقلين الجن والإنس؛ قررهم تعالى بنعمه، فقال: ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبُّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾؛ أي: فبأيِّ نعم الله الدينيَّة والدينيَّة تكذِّبان؟ وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة؛ فكلُّما مرَّ بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبُّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾؛ قالوا^(١): ولا بشيءٍ من آلائك ربنا نكذب؛ فلك الحمد^(٢). فهكذا^(٣) ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلؤه أن يُقرَّ بها ويشكر ويحمد الله عليها.

ثم قال تعالى:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿١١﴾﴾

﴿١٤﴾ وهذا من نعمه تعالى على عباده؛ حيث أراهم من آثار قدرته وبيدع صنعته أن ﴿خَلَقَ﴾ أبا ﴿الإنسان﴾، وهو آدم عليه السلام، ﴿من صلصالٍ كالفخَّارِ﴾؛ أي: من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن، حتى جف فصار له صلصلةٌ وصوتٌ يشبه صوت الفخَّار، وهو الطين المشوي^(٤).

﴿١٥﴾ ﴿وخلق الجن﴾؛ أي: أبا الجن، وهو إبليس لعنه الله^(٥) ﴿من مارجٍ من نارٍ﴾؛ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان. وهذا يدلُّ على شرف عنصر آدميِّ المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزانة والثقل والمنافع؛ بخلاف عنصر الجن، وهو النار، التي هي محلُّ الخفة والطيش والشرِّ والفساد.

(١) في (ب): «فما مرَّ بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبُّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ إلا قالوا».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، والحاكم (٤٧٣/٢) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١٥٠).

(٣) في (ب): «فهذا الذي».

(٤) في (ب): «صوت الفخار الذي طبخ على النار».

(٥) في (ب): «وهو إبليس اللعين».

﴿١٦﴾ ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك^(١)، وكان ذلك مئةً منه تعالى عليهم^(٢)؛ قال: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾!؟

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آءَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾

﴿١٧ - ١٨﴾ أي: هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، وكل ما كانا فيه؛ فالجميع تحت^(٣) تديره وربوبيته، وثناهما هنا باعتبار مشارقتها شتاءً وصيفاً. والله أعلم^(٤).

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْحٌ لَّا يَبْتِغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آءَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آءَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾

﴿١٩ - ٢٣﴾ المراد بالبحرين: البحر العذب والبحر المالح؛ فهما يلتقيان [كلاهما]، فيصب العذب في البحر المالح ويختلطان ويمتزجان، ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخاً من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما؛ فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم وحروثهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسمك واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقراً مسخراً للسنن والمراكب، ولهذا قال:

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آءَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿٢٤ - ٢٥﴾ أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجوارية التي تمخر البحر وتشقه بإذن الله، التي ينشئها الآدميون، فتكون من عظيمها وكبرها^(٥) كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجارتهم وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، ولهذا^(٦) قال: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾!؟

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آءَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

(١) في (ب): «ولما بين مادة الثقلين».

(٢) في (ب): «على عباده».

(٣) في (ب): «وكلما غربت عليه فهي تحت».

(٤) في (ب): «وثناهما هنا لإرادة العموم مشرقى الشمس شتاءً وصيفاً ومغربها كذلك».

(٥) في (ب): «من كبرها وعظمتها».

(٦) في (ب): «فلذلك».

﴿٢٦ - ٢٨﴾ أي: كلٌّ مَنْ على الأرض من إنسٍ وجنٍّ ودوابٍّ وسائر المخلوقات يفنى [ويموت] ويبيد، ويبقى الحيُّ الذي لا يموت، ﴿ذو الجلال والإكرام﴾؛ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظّم ويبجّل ويجلُّ لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود، الذي يكرم أوليائه وخواصَّ خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أوليأوه ويجلّونه ويعظّمونه ويحبّونه وينيبون إليه ويعبدونه. ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان!﴾

﴿يَسْتَلْهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿فَإِنَّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿٢٩ - ٣٠﴾ أي: هو الغنيُّ بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسعُ الجود والكرم، فكلُّ الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقلّ من ذلك، وهو تعالى ﴿كلُّ يوم هو في شأنٍ﴾: يغني فقيراً ويجبر كسيراً ويعطي قوماً، ويمنع آخرين، ويميت، ويحيي، ويخفض، ويرفع^(١)، لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، ولا تغلّطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحّين، ولا طول مسألة السائلين. فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمّت مواهبه أهل الأرض والسموات، وعمّ لطفه جميع الخلق في كلِّ الآنات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء^(٢) معصية العاصين ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه.

وهذه الشؤون التي أخبر أنه [تعالى] ﴿كلُّ يوم هو في شأنٍ﴾: هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضتها حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرة التي يجربها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت هذه الخليقة، وأفناهم^(٣) الله تعالى، وأراد أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء ويربهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه ما به يعرفونه ويوحّدونه؛ نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان، وفرغ حينئذٍ لتنفيذ هذه الأحكام التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله:

﴿سَفَرُكُمْ لَكُمْ آيَةُ الْفَلَاقِ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿فَإِنَّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٣٢﴾

(٢) في (ب): «العطاء».

(١) في (ب): «ويرفع ويخفض».

(٣) في (ب): «وأفنى».

﴿٣١ - ٣٢﴾ أي: سَتَفْرُغُ لِحِسَابِكُمْ وَمَجَازَاتِكُمْ بِأَعْمَالِكُمُ الَّتِي عَمَلْتُمُوهَا فِي دَارِ الدُّنْيَا.

﴿يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ [لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَيْبِكُمْ تُكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾] (١).

﴿٣٣ - ٣٤﴾ أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة؛ أخبرهم بعجزهم وضعفهم وكمال سلطانه ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزاً لهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: تجدون مسلكاً ومنفذاً (٢) تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، ﴿فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾؛ أي: لا تخرجون منه إلا بقوة وتسلط منكم وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؛ ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحدٌ إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همساً، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك والرؤساء والمرؤسون والأغنياء والفقراء.

ثم ذكر ما أعد لهم في ذلك اليوم (٣)، فقال:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَيْبِكُمْ تُكْذِبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ (٤).

﴿٣٥ - ٣٦﴾ أي: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ لهب صافٍ من النار ﴿وَنُحَاسٌ﴾ وهو اللهب الذي قد خالطه الدخان. والمعنى: أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكم [يا معشر الجن والإنس] ويحيطان بكم فلا تنتصران؛ لا بناصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله. ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب؛ ذكر مثته بذلك فقال (٥): ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَيْبِكُمْ تُكْذِبَانِ﴾!؟

[﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَيْبِكُمْ تُكْذِبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَيْبِكُمْ تُكْذِبَانِ ﴿٤٠﴾ يَعْرِفُ الشُّجْرُمُْونَ بِسْمَتِهِمْ﴾]

(١) ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

(٢) في (ب): «منفذاً أو مسلكاً».

(٣) في (ب): «في ذلك الموقف العظيم».

(٤) ذكرت الآيات في (أ). ولم تذكر في (ب).

(٥) في (ب): «امتن عليهم فقال».

فِيؤْخَذُ بِالتَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٤٢﴾ [١].

﴿٣٧ - ٣٨﴾ ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾؛ أي: يوم القيامة من الأحوال وكثرة البلبال وترادف الأوجال، فانخسفت شمسها وقمرها، وانتثرت نجومها؛ ﴿فَكَانَتْ﴾: من شدة الخوف والانزعاج ﴿وَرَدَّةَ كَالدَّهَانِ﴾؛ أي: كانت كالمهل والرصاص المذاب ونحوه. ﴿فَبِأَيِّ ءَأَلَاءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ!﴾

﴿٣٩ - ٤٠﴾ ﴿فِيَوْمِئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾؛ أي: سؤال استعلام بما وقع؛ لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

﴿٤١ - ٤٢﴾ وقال هنا: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾. فَبِأَيِّ ءَأَلَاءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ؟ أي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيُلْقَوْنَ فِي النارِ وَيُسْحَبُونَ إِلَيْهَا. وَأَمَّا يَسْأَلُهُمْ تَعَالَى سَوَآلَ تَوْبِيخٍ وَتَقْرِيرٍ بِمَا وَقَعَ مِنْهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يَرِيدُ أَنْ تَظْهَرَ لِلْمَخْلُوقِ حُجَّتَهُ الْبَالِغَةَ وَحِكْمَتَهُ الْجَلِيلَةَ.

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَأَلَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٤٤﴾.

﴿٤٣ - ٤٥﴾ أي: يقال للمكذبين بالوعد والوعيد حين تُسْعَرُ الْجَحِيمُ: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾: فليهنهم تكذيبهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها ما هو جزاء لهم على تكذيبهم^(٢)، يطوفون بين أطباق الجحيم ولهبها، ﴿وبين حميم آن﴾؛ أي: ماء حار جدًا قد انتهى حره، وزمهير قد اشتد برده وقره. ﴿فَبِأَيِّ ءَأَلَاءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ!﴾

ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين؛ ذكر جزاء المتقين الخائفين، فقال:

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ﴾ ﴿٤٦﴾ فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٤٧﴾ ﴿ذَوَاتَا أَفَانٍ﴾ ﴿٤٨﴾ فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَنَكِهِمُ رَوْجَانِ

(٢) في (ب): «ما هو جزاء لتكذيبهم».

(١) الآيات زيادة على النسختين.

(٣) في النسختين: إلى آخر السورة.

﴿٥٢﴾ فَإِنِّي ءآلآءَ رَبِّكَآ تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنۢ إِسْتَبْرَقٍ وَحَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَإِنِّي ءآلآءَ رَبِّكَآ تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَتُ الطَّرْفِ لَمۡ يَطْمِئِنَّنَّ إِسۡ قَبْلَهُمۡ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَإِنِّي ءآلآءَ رَبِّكَآ تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَإِنِّي ءآلآءَ رَبِّكَآ تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلۡ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَإِنِّي ءآلآءَ رَبِّكَآ تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنۡ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَإِنِّي ءآلآءَ رَبِّكَآ تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدَّهَاتَانِ ﴿٦٤﴾ فَإِنِّي ءآلآءَ رَبِّكَآ تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَإِنِّي ءآلآءَ رَبِّكَآ تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَنَكُهُۥٓ وَقَعَلٌ وَرَمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَإِنِّي ءآلآءَ رَبِّكَآ تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَإِنِّي ءآلآءَ رَبِّكَآ تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْغِيَّآءِ ﴿٧٢﴾ فَإِنِّي ءآلآءَ رَبِّكَآ تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمۡ يَطْمِئِنَّنَّ إِسۡ قَبْلَهُمۡ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَإِنِّي ءآلآءَ رَبِّكَآ تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَإِنِّي ءآلآءَ رَبِّكَآ تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ نَبْرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ .

﴿٤٦ - ٤٧﴾ أي: وللذي خاف ربه وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه، وفعل ما أمره به؛ له ﴿جنتان﴾ من ذهب آتيتهما وحليتهما وبنيانهما وما فيهما، إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ومن أوصاف تلك الجنتين أنهما ﴿ذواتا أفنان﴾؛ أي: فيهما من ألوان التعيم المتنوعة؛ نعيم الظاهر والباطن؛ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ أي: فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة، ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار اليانعة اللذيذة.

﴿٥٠ - ٥١﴾ وفي تلك الجنتين ﴿عينان تجريان﴾: يفجر وهما على ما يريدون ويشتهون.

﴿٥٢ - ٥٣﴾ ﴿فيهما من كل فاكهة﴾: من جميع أصناف الفواكه ﴿زوجان﴾؛ أي: صنفان؛ كل صنف له لذة ولو لم يكن للنوع الآخر.

﴿٥٤ - ٥٥﴾ ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾: هذه صفة فرش أهل الجنة وجلوسهم عليها، وأنهم متكئون عليها؛ أي: جلوس تمكن واستقرار وراحة؛ كجلوس الملوك على الأسرة، وتلك الفرش لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله تعالى^(١)، حتى إن بطائنها التي تلي الأرض منها من إستبرق وهو أحسن الحرير

(١) في (ب): «عز وجل».

وأفخره؛ فكيف بظواهرها التي يباشرون^(١)، ﴿وجنى الجنتين دان﴾: الجنى هو الثمر المستوي؛ أي: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع.

﴿٥٦ - ٥٩﴾ ﴿فيهنّ قاصرات الطرف﴾؛ أي: قد قصرن طرفهنّ على أزواجهنّ من حسنهم وجمالهم وكمال محبتهنّ لهم، وقصرن أيضاً طرف أزواجهنّ عليهنّ من حسنهنّ وجمالهنّ ولذّة وصالهنّ وشدة محبتهنّ، ﴿لم يطمثنّ إنس قبلهم ولا جان﴾؛ أي: لم ينلهنّ أحد قبلهم^(٢) من الإنس والجنّ، بل هنّ أبكار عربّ متحبيّات إلى أزواجهنّ؛ بحسن التبعل والتغشج والملاحة والدلال، ولهذا قال: ﴿كانهنّ الياقوت والمرجان﴾، وذلك لصفائهنّ وجمال منظرهنّ وبهائهنّ.

﴿٦٠ - ٦١﴾ ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾؛ أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق، ونفع عبيده إلا أن يُحسن إليه بالثواب الجزيل والفوز الكبير والنعيم المقيم والعيش السليم؟ فهاتان الجنتان العاليتان للمقرّبين.

﴿٦٢ - ٦٩﴾ ﴿ومن دونهما جنتان﴾: من فضة بنيانها وحليتها وآيتهما^(٣) وما فيها لأصحاب اليمين، وتلك الجنتان ﴿مدهامتان﴾؛ أي: سوداوان من شدة الخضرة والرّي^(٤)، ﴿فيهما عينان نضّاختان﴾؛ أي: فوّارتان، ﴿فيهما فاكهة﴾: من جميع أصناف الفواكه، وأخضها النخل والرمان، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما.

﴿٧٠ - ٧٥﴾ ﴿فيهنّ﴾؛ أي: في الجنات كلّها ﴿خيرات حسان﴾؛ أي: خيرات الأخلاق حسان الأوجه، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن وحسن الخلق والخلق. ﴿حور مقصورات في الخيام﴾؛ أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تهيأن وأعددن أنفسهنّ لأزواجهنّ، ولا ينفي ذلك خروجهنّ في البساتين ورياض الجنة كما جرت العادة لبنات الملوك المخدّرات الخفّيرات^(٥)، ﴿لم يطمثنّ إنس قبلهم ولا جان﴾. فبأي آلاء ربكما تكذّبان!؟

﴿٧٦ - ٧٧﴾ ﴿متكئين على رفرف خضر﴾؛ أي: أصحاب هاتين الجنتين متكأهم على الرفرف الأخضر، وهي الفرش التي تحت^(٦) المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم؛ لزيادة البهاء وحسن

(١) في (ب): «التي تلي بشرتهم».

(٢) في (ب): «لم ينلهنّ قبلهم أحد».

(٣) في (ب): «وآيتهما وحليتهما».

(٤) في (ب): «الخضرة التي هي أثر الرّي».

(٥) في (ب): «ونحوهنّ الخفّيرات».

(٦) في (ب): «فوق».

المنظر، ﴿وعبقري حسن﴾: العبقري نسبة لكل منسوج نسجاً حسناً فاخراً، ولهذا وصفها بالحسن الشامل لحسن الصفة و [حسن] المنظر ونعومة الملمس وهاتان الجنتان دون الجنة الأولىين؛ كما نصّ الله على ذلك بقوله: ﴿ومن دونهما جنتان﴾، وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف به^(١) الآخرين، فقال في الأوليين: ﴿فيهما عينان تجريان﴾، وفي الآخرين: ﴿عينان نضاختان﴾: ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاختة، وقال في الأوليين: ﴿ذواتا أفنان﴾، ولم يقل ذلك في الآخرين، وقال في الأوليين: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾، وفي الآخرين: ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾، وقد عُلِمَ ما بين الوصفين من التفاوت. وقال في الأوليين: ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان﴾، ولم يقل ذلك في الآخرين، بل قال: ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسن﴾، وقال في الأوليين في وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿فيهن قاصرات الطرف [لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان]﴾، وفي الآخرين: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾، وقد عُلِمَ التفاوت بين ذلك، وقال في الأوليين: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾، فدل ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخيرتين، ومجرد تقديم الأوليين على الآخرين يدل على فضلها.

فهذه الأوجه يُعرَفُ فضل الأوليين على الآخرين، وأنهما معدتان للمقربين من الأنبياء والصدّيقين وخواصّ عباد الله الصالحين، وأن الآخرين معدتان لعموم المؤمنين. وفي كل من الجنات المذكورات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشتهي النفس وتلدّ الأعين، وأهلهنّ في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إن كل واحدٍ منهم^(٢) لا يرى أحداً أحسن حالاً منه ولا أعلى من نعيمه الذي هو فيه.

﴿٧٨﴾ ولما ذكر سعة فضله وإحسانه؛ قال: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾؛ أي: تعظم وكثر خيره الذي له الجلال الباهر والمجد الكامل والإكرام لأوليائه.

تم تفسير سورة الرحمن. ولله الحمد والشكر والثناء الحسن



(٢) في (ب): «حتى إن كلاً منهم لا يرى».

(١) في (ب): «بها».